# الدينامية التاريخية من خلال كتاب الانتروبولوجيا والاستعمار: دراسة وصفية وتحليلية Historical dynamism through the book of Anthropology and Colonialism: A descriptive and analytical study

## رشيد صديق،

دكتور وباحث في التاريخ والتراث جامعة محمد الخامس الرباط المملكة المغربية sadik.rachido@gmail.com

تاريخ الاستلام: 05 /2022/02 تاريخ القبول:17 /2022/04 تاريخ النشر: 2022/04/26

## ملخص:

ما بعد الاستعمار؟ ربما يطرح هذا السؤال في وقتنا الحاضر، لأنه دون الاعتراف بالتوجه العام للأطروحة الجيرارية نسبة إلى جيرار ليكلك التي تمشي مع التوجه الحديث للأنتربولوجيا المعاصرة حيث تعيش بحسبه حالة الأزمة في المشروعية والشرعية الأنطولوجية في عالم تكشف فيه الشعوب التي اعتبرتما الانتربولوجيا لوقت قريب بالبدائية عن ظواهر الكائنية المتميزة كما هو الحال مع ظاهرة العدل الإنساني الخارقة للعادة في شعوب أهل السودان ومكانة المرأة المتميزة لدى شعوبها وشعوب المتاخمين لها من أهل الصحراء والبدو، إنها الظواهر التي لم تنال الاعتراف الأنتربولوجي في زمن الحماية الاستعمارية. إذن لا يمكن الحديث عن مشروع الحداثة الذي يرتبط بظرفية استعمارية تاريخية وسياسية ساهمت في ظهور جملة من العوامل والأسباب المتعددة والمتنوعة.

الكلمات الدالة: النظرية، الاستعمار، الانتروبولوجيا، التاريخ، الشعوب، إفريقيا

#### Abstract:

Post-colonialism? Perhaps this question arises at the present time, because without acknowledging the general orientation of the Gerardian thesis in relation to Gerard Leclerc, which is in line with the modern

trend of contemporary anthropology, whereby a state of crisis in legitimacy and ontological legitimacy lives in a world in which the peoples whom anthropology considered primitive recently reveal the distinct phenomena of objectivity As is the case with the extraordinary phenomenon of human justice in the peoples of the people of Sudan and the distinguished position of women among their peoples and the peoples bordering them from the desert and the Bedouins, these are phenomena that did not receive anthropological recognition in the time of colonial protection. Therefore, it is not possible to talk about the modernity project, which is linked to a historical and political colonial circumstance that contributed to the emergence of a number of multiple and varied factors and causes

.**Keywords:** Theory, Colonialism, Anthropology, History, Peoples, Africa

### 1. مقدمة

قبل الغوص في مضمون الكتاب "الأنثروبولوجيا والاستعمار"، ارتأينا أولا تقديم عرض شكلي حول الكتاب. فهذا الأخير الذي نحن بصدد دراسته هو لصاحبه "جيرار لكلرك" حيث قام بترجمته جورج كتورة. من إصدارات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الثانية 1990م-1419ه. يقع هذا الكتاب في 240 صفحة ويحتوي على مقدمة الطبعة الثانية ومقدمة عامة ثم ثلاثة أقسام وفي الأخير ملحق.

حاول المؤلف في مقدمة العامة الإشارة إلى السياق العام لظهور الانثربولوجيا، مقدما في ذلك أهم المدارس التي حاولت تقديم استفسارات ونظريات لهذا المصطلح الغربي موضح أن المدرسة الوظيفية تعد من أهم المدارس التي أعقبت على المدرسة التطورية إذ بذلك لعبت دورا مهما في تأسيس علم الانثروبولوجيا.

إن ظهور الانثربولوجيا كعلم مستقل بذاته جاء مع أواخر القرن 19م، بالرغم من أن امتدادها التاريخي يعود إلى العصر اليوناني والإغريقي وعصر الأنوار. هذا العلم المستقل بذاته رهين بوجود الإنسان على مر التاريخ، حيث استطاعت أن تفرض ذاتما ونفسها دائما مع وجود الفكر الإنساني بشكل مستقل ضمن العلوم الإنسانية والاجتماعية. وتحتم بالكائن البشري في جل تمظهراته الاجتماعية والثقافية والسياسية. لقد ارتبطت الانثروبولوجيا بثلاث مدارس أساسية رائدة في هذا المجال وهما: المدرسة الفرنسية، المدرسة الأمريكية، المدرسة البريطانية. مع تعدد مناهجها ومقاربتها النظرية وروادها.

## 2. الدينامية التاريخية من منظور الانثروبولوجيا

هذا فيما يخص المقدمة العامة، أما في القسم الأول وارتباطا بالخلفية الإيديولوجيا في القرن 19م حاول جيرار من خلال كتابه الإحاطة بمختلف جوانب التطور الإنثربولوجي

وارتباطه بالخلفية الإيديولوجية الاستعمارية للشعوب البدائية. لقد أسهم الباحث في القسم الأول إلى طرح إشكالية المجتمعات الغربية المؤلس ال

ومع بداية التوسع الأوروبي في أواسط القرن 19م على مجموعة من الشعوب الغربية ومن أبرزها البلدان الإفريقية. بدأ هذا العلم الإنساني الجديد يهتم بدراسة تلك الشعوب وتصنيفها ضمن الخرائط والبيانات الجغرافية. وخلال بداية القرن 19م بدأت الرحلات الاستكشافية لأدغال إفريقيا وكانت رحلة الانجليزي "مونغا وبارك" رغم الرحلات السابقة في عصر الأنوار البداية الحقيقة لاكتشاف إفريقيا.

تعتبر النظريات العامة التي تعود إلى عصر النهضة والعصور الوسطى المرتبطة بالحياة البدائية هي دليل على أنها الحياة الطبيعية وأساس النجاح والتقدم. ومن أهم هذه الرؤى أو النظريات نجد نظرية أدم سميت وريكاردو حول قيمة العمل داخل هذه المجتمعات البدائية. فحسب المؤلف تعتبر فترة الاستعمار المرحلة التي كرست هذا المفهوم "إنسان البدائي"، باعتباره إنسان كسول. ومن هنا يتضح أن العائق الأول بالنسبة للعمل والتصنيع من وجهة نظر جيمس شيورات، حيث اعتبر الإنسان البدائي كائن غير منتج، أما أدم سميت فالمجتمعات البدائية في نظره لا تشكل إلا نقطة فصل بينها وبين المجتمعات بعيون الغربية.

ومن الناحية أخرى، يركز المؤلف على الرحالة البحاثة والتمدن وأعمالهم في إطار الاستكشافات والرحلات العلمية للمجتمعات الإفريقية. وبذلك تكون سنة 1850م هي البداية الأولى لاجتياز إفريقيا و بداية تأسيس العلم الإنساني "الانثروبولوجيا" عبر الرحلات العلمية معتبرا هذه الأخيرة الوسيلة الأولى والأساسية لإدراج هذه المجتمعات ضمن المناطق المستعمرة. كما أن هؤلاء الباحثين يتميزون دائما بمدفهم الأساسي وهو اكتشاف هذه

الشعوب من خلال خيراتها واستنزافها وتنصيرها ليمتد إليها للقيام بعمل إنساني يخدم السلام والتسامح في نظرهم، حتى يتم استكشاف الأوليات التي تتحكم بالحركة التاريخية للمجتمعات المسيطرة عليها1.

وفي نطاق أخر، يذهب بنا المؤلف "جيرار" إلى معالجة إشكالية الأسبقية هل الدين أم الصناعة في المجتمعات الإفريقية؟. مستحضرا مجموعة من المفكرين أمثال "ليفنغستون" في الذي يعتبر أنه من الخطأ فعل الاثنين عن بعضهما لأنهما مرتبطان. مضيفا المبشر "برين" في "كتابه العرب والأفارقة، حيث يرى أن المسيحيين الأفارقة تمكنوا من اكتساب حضارة بطريقة السهولة أكثر من الوثنين. أما "ليفينسستون" فقد كان استثنائي حيث كان إنساني النزعة، لا يدعو إلى الاستعمار تلك الشعوب بل يدعو على حمايتها ومساعدتها. ويرى أن الهدف الأساسي من هذه المجتمعات هو التخفيف من وطأة الحالة الطبيعية والخلفية التي تعاني منها تلك المشرية.

وفي نفس الإطار، انطلق المؤلف "جيرار" إلى الحديث عن ظروف نشأة الانثروبولوجيا الوضعية في النصف الثاني من القرن 19 م والتي ارتبطت أساسا بظهور المدرسة التطورية. ومن أهم هذه الظروف التي عجلت في ظهورها مجموعة من المؤلفات نذكر منها:

- 1- "القانون القديم" لماين 1861م
- 2- "المجتمع البدائي" لتايلور 1871م
  - 3- "نظم القرابة" لمورغان 1869م

<sup>1-</sup> محمد محسن دكروب، **الانتروبولوجية:الذاكرة والهامش**، دار الحقيقة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1991، ص 9.

# 4- "المجتمع القديم" جيرار لكلرك 1877م

ومن ذلك الوقت بدأ الانقلاب على الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، معتبرا أن هذه الأخيرة والانثروبولوجيا تربطهما علاقة توافق وليس علاقة تناقض وتنافر. لا تفهم المدرسة التطورية العقل الإنساني إلا من خلال ربطه بالعقل التاريخي وبالتصور الإنساني عبر التاريخ مستحضرا مفهوم الثقافة الذي قدمه تايلور. فهذه المدرسة أي التطورية تنظروا إلى التقدم كمرحلة انتقالية من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة البدائية ومن هذه إلى المرحلة البربرية ومنها إلى مرحلة التمدن. أما الاستعمار أو ما سماه "الاستعمار العلمي"، مشيرا إلا أنه ما يميزه هو إيديولوجية تدعى بالتبشير للأخلاق والعلم والتقنية وبذلك يكون الاستعمار العلمي لا معنى له من خلال غرض الانثربولوجيا، حيث يتغير المعنى ويتحول إلى دراسة التغير الاجتماعي والتثاقف.

وفي نفس التوجه الاستعماري الامبريالي بشكل التماثل، وحسب المؤلف ترجع نهاية الاستعمار إلى الرؤى التطورية أي الاعتقاد بالوحدة التكوينية للطبيعة الإنسانية وتحقيق تماثل مع أعراف تختلف عن أعراف المركز. وفي نفس الإطار أيضا، يستحضر لنا المؤلف أحد قضاة تلك الفترة وهو "بيير ولت" الذي انطلق من مواقف تطورية تنادي بالثماتل الذي جعل الآخرين متشابهين مضيفا كذلك تصور دوركايم والعديد من الباحثين والمفكرين.

لينطلق بنا إلى الانثربولوجيا الميدانية<sup>2</sup> حيث انطلاقتها كانت في فرنسا عن طريق مبادرة بعض الحكام الراغبين في معرفة الشعوب الخاضعة لسيطرتهم مع احترام الخصوصيات المحلية لتلك الشعوب كما هو الحال بالنسبة للسودان. والواقع حسب المؤلف فإن دراسات "كلوزل" الوصفية لسودان والسينغال ونجيريا يعود الجزء الأكبر منها لمساعدة "دولافوس" والذي يعتبر

<sup>2 -</sup> جيرار ليكرك، الانتربولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ص 45.

من أحد رواد الأبحاث الميدانية، ومن أهم أفراد الطاقم الإداري الاستعماري في إطار المدرسة التطورية. إذ اعتمد مفاهيم تطورية تحدث عن مجتمعات بدائية وعن مراحل التمدن فيما يخص الباحثين الفرنسيين. أما بالنسبة للبريطانيين فلهم الفضل في تطور الانتربولوجيا الاجتماعية وتعزيز الانثربولوجيا التطويرية، الشيء الذي أدرك "لوغارد" ضرورة إجراء الدراسات الميدانية التي تسعى إلى تطبيق السياسة الغير المباشرة. وبذلك تكون فرنسا انتهجت سياسة التماثل، أما بريطانيا فقد انتهجت سياسة الإدارة غير المباشرة في سياستها الاستعمارية في البلدان الإفريقية.

وننهي القسم الأول، بأن النظرية الانثروبولوجية التي قدمت علم يتعلق بالمحتوى الذهني للخرافة وعلى فهم الثقافات غير الغربية بشكل عام. فالنظرية الانثروبولوجية هي الأخرى الوحيدة المعقلنة من هذه الزاوية على كشف ثنائيا الخرافة. وبالتالي القضاء عليها بعد فهمها حسب تعبير جيرار لكلرك. لتبقى الانثروبولوجيا مغتربة في ممارستها مع الاستعمار والتي لم تستقل من الإيديولوجية الاستعمارية إلى مع بداية الأبحاث الميدانية التي تشكل ممارسة مستقلة والمساهمة في تحويل الإيديولوجية الاستعمارية من الاحتكاك والتوثر في إدارة المجتمع الاستعماري إلى استخدام الخبراء الانتروبولوجين وتعيينهم مستشارين في الإدارات الحكومية للبلاد المستعمرة 3، حيث أن الاستعمار ليس توسعا وسيطرة اقتصادية بل إنه فوق ذلك سيطرة أثنية مركزية ثقافية محضة.

# 3. الاستعمار والانثروبولوجيا الكلاسيكية، حقيقة أم خيال؟

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup>- لنش رالف، **الانتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث**، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 1967، ص 34.

بعد القسم الأول، يذهب بنا المؤلف إلى القسم الثاني المعنون تحث اسم "الانتربولوجيا الكلاسيكية أمام حقيقة الاستعمار". من خلال هذا القسم يوضح لنا جيرار مساهمة مالينوفسكي في تحديد الشروط الجديدة للانثربولوجيا بالمعنى المعاصر للكلمة، حيث أمن طريقة جديدة في دراسة البدائية. إلا أنها لم توفق بعد ذلك نظرا ارتكابه الأخطاء في حق التقدم التقني الذي يحول الإنسان إلى آلة. ومن هنا لم تعد الانثربولوجيا هي المدنية بل هي الحياة الأصلية إزاء كل الإحباطات المجتمع. وبدأت دراسات جديدة للمجتمعات البدائية تظهر وترى النور منذ نهاية القرن 20م. فبعد أن كانت الانثربولوجيا القديمة تحتم بالعمل الميداني من خلال إقامة فروقات واستعمال مفاهيم تندرج ضمن حقل الطبيعة على الانثربولوجيا أن تحتم بدراسة داخل المجتمعات قصد فهم تفاعلاتها وبناءها ونظمها الداخلية. وهذا السبب ستكون العشرينيات من القرن الماضي حاسما في تاريخ الانثربولوجيا الحديثة.

إن بدايات البناء التطوري جاءت مع مجموعة من الأحداث التي وجهت مجموعة من المدارس، كالمدرسة الانتشارية والنقد الموجه للايديولوجيا الفكتورية التي تعتمد على مفاهيم خاصة مثل مفهوم الطبقات، الشرائح... وبهذا التنوع ستكون كل هذه الأسباب مهدت في تكون الانثربولوجيا الجديدة التي تناولت النقد والتحليل بشكل أساسي. هذا ما سيجعل المشروع التحليلي الجديد للانثربولوجيا وحقلها مختلفا عن المرحلة الأولى، حيث سيعمل "راد كليف براون" من خلال هذا الطرح على العمل الميداني ومن أطروحات مدرسة دوركايم السوسيولوجية لجرد الانثربولوجيا من الاستعمارية نحو النزعة النظرية التحليلية. وسيكون هدف الانثربولوجيا هو التخلص من التاريخ الذي يعيق تطور الأحداث، ليدخل المشروع علم الاجتماع الجديد. فالطريقة الجديدة للانثربولوجيا الحديثة ستعتمد على التحليل الميداني بالدرجة الأولى في الانثربولوجيا الاجتماعية. وبهذا النمط الجديد ستصبح المدرسة أو النظرية

التطورية حسب تعبير كل من راد كليف براون و مالنوفسكي "تظل مفتوحة خاضعة في العمل الميداني والأبحاث التجريبية التي تحترم الفروقات والتفاصيل". كما سيضل البناء التاريخي غير حقيقي بالنسبة للعالم الانثربولوجي، وسيكون هذا الأخير معترفا بالنظرية وممارسة متنقلة عن التاريخ، وسيصبح العمل أو البحث الميداني كفيل بأن يمده بكل ما يريد من معرفة حسب مالنوفسكي.

لقد كان غرض الانثروبولوجيا في السابق هو اكتشاف "المجتمعات البدائية" ومعرفتها واستنزاف خيراتها، إلا أنه في هذه المرحلة سيعرف الغرض والهدف نوعا من التحول وسيصبح مستقلا عن الغرض الأول بعدما تقلكت وحدة الحقل التحليلية المتميز عن التاريخ، حيث حاول "راد كيف براون" إعطاء الانثربولوجيا الجديدة منهجية جديدة ومستقلة عن الأولى تستغني جذورها بالنظرية العامة المتعلقة بالنظريات العامة المتعلقة بالجتمعات. ومن خلال هذا التحول الذي عرفه غرض الانثربولوجيا ستنصب كل غاياتها في المجتمع البشري.

إن التحليل الانتربولوجي الجديد سيعرف نشوء نمط جديد في التحليل إلا وهو التحليل الوظيفي ونشأة علم جديد وهو الانثربولوجيا الاجتماعية، حيث ظهر هذا العلم نتيجة مجموعة من الأسباب أولها، هو هدم الإيديولوجية الفكتورية، وثانيا، ظهور طريقة تقريبية جديدة للمجتمعات البدائية. فالإيديولوجية الفيكتورية هي في المقابل الوظيفية التطورية وهي إيديولوجيا استعمارية. كل هذا جعل من هاته الروئ تفقد حسها المعرفي والعلمي اتجاه علم الانثروبولوجيا. مع العلم بأن الايديولوجيا الاستعمارية هي نتيجة أزمة التطورية. وفي الأخير سيدرك الاستعمار خلال سنة 1930م أنه تغيرا ثقافيا واجتماعيا.

بعدما عرف الاستعمار تغيرا تتاقفيا (أو ثقافيا) أصبحت كلمة الاستعمار تشير إلى مجال خارج عن إطار العلم، وأضحى هذا العلم بحاجة إلى خلق مفاهيم جديدة خاصة به. فبعدما

أدركت الانثروبولوجيا حقيقة الاستعمار خلال الثلاثينيات القرن 20م بدأت تستعمل كمفاهيم جديدة: الاحتكاك الثقافي، أو الصدمة الثقافية أو التثاقف، أو التغير الاجتماعي.

فالمفهوم الأول: الصدمة الثقافية أو الاحتكاك الثقافي، قد استعملت هذه المفاهيم قبل فتح المدرسة الوظيفية وبعدما استعمل مفهوم الاحتكاك الثقافي لأول مرة في المؤتمر العالمي الأول للأعراق الذي عقد في لندن سنة 1911م على يد الانثروبولوجي "بواس".

أما المفهوم الثاني: فهو التتاقف. وقد ظهرت هذه الكلمة خلال عام 1880م على يد الانثربولوجين الأمريكيين في قمة الملحمة الغربية. فمفهوم التتاقف يشير في الغالب إلى انتقال مؤسسات أو ممارسات إلى أخرى. وفي نفس الوقت هو ظاهرة عامة، تجمع مجموعة من الظواهر التي تنتج عن احتكاك مباشر لجماعة أفراد ما. بإضافة إلى التغيرات التي تصيب أنماط الثقافة الأصلية لمجتمع ما. إلى جانب هذا، يتضمن المفهوم دراسة الاحتكاكات المختلفة التي حصلت بين المجتمعات على مدى التاريخ. ومن هنا يتبين لنا أن الاستعمار ما هو إلى حالة من حالات "الاستعمارات" أي الاحتكاكات الثقافية أو التغير الاجتماعي.

لقد شهد الاستعمار تحول علميا حيث انتقل من الاستعمار كمفهوم إلى عملية التتاقف وذلك لمجموعة من الأسباب نتيجة ظهور تناقض كاملا بين المفاهيم الفكتورين ومبادئهم من جهة، ومفاهيم الانثربولوجين الكلاسكين ومبادئهم من جهة ثانية. فالارتباط بين الاستعمار والتتاقف تبدو أهميتها واضحة في عزلتها واستقلالية الغرض والهدف. وبهذا الغرض تكون إيديولوجية الاستعمار تحولت إلى التتاقف. لقد حاول الاستعمار أن يسطر على المستعمر على الدوام، أما الايديولوجيا الفكتورية الاستعمارية فهي دائم تحاول رفض طبيعة الإيديولوجية الاستعمارية.

ظهرت الانثربولوجيا التطبيقية التي تولدت من رغبة المدرسة الوظيفية في تطبيق عملها على السياسة الإدارية، فصارت هذه حقيقة واقعة في سنة 1940م. ومن هنا بدأت تطرح نفسها كعلم مستقل بذاته. إنها بكل اختصار نظرية جديدة وعلم جديد.

اعتبر المعهد الإفريقي الذي تأسس سنة 1926م من أبرز نشاطات وأجهزة الأكثر أهمية في الأجهزة الإدارية العالمية. ومن أبرز الشخصيات التي ساهمت في تأسيسها نذكر كارل مايذهوف، دولافوس.... وغيرهم من الشخصيات في حقل الانثربولوجيا الكلاسيكية. وكانت أهم الموضوعات هذا الحقل العلمي هي الدراسات المرتبطة بالأنظمة والأراضي وبالقانون الجزائي. وفي سنة 1940م تأسست جمعية الانثربولوجيا التطبيقية التي ستقوم بقطيعة مع الرأي أي مع جل أحكام المسبقة الجهالة، ومن بين هذه الجهالة نكر فئة الإداريون.

ويعتبر راد كليف براون من أهم المهتمين بالانثربولوجيا التطبيقية مع صديقه مالنوفسكي. وفي مقابل هذا نجد إفانز بريتشار الذي خلف براون ومالنوفسكي، بحيث رحب بالانثربولوجيا في الإدارة، باعتبارها ضرورة أساسية في فهم اختصاصات الإدارة الاستعمارية. ومن هنا بدأت لغة الانثربولوجيا الإدارية الأوروبية يعمدها الخطر بأن تذوب في أنثربولوجيا العالم الثالث. وظهر لنا خلاف بين الانثربولوجي والإداري فيما يخص بالسياسة الاستعمارية.

تبدو لنا بعض الملاحظات حول الانثربولوجيا والإدارة الاستعمارية الفرنسية من خلال مجموعة من الصفات الانثربولوجي الفرنسي، فهو دائما يسعى للحصول على الانتماء لإدارته بمقابل هذا نجد أن الانثربولوجي الانجليزي المعروف بسياسة الإدارة غير المباشرة سيلجأ إلى تطبيقها عبر الانتداب من أجل إظهار ميزته التقدمية. إلا أن ما يميز هذه السياسة هي تواطئوا الوظيفية عليها، حيث يتجلى هذا التواطئوا من خلال القول بأن سياسة إدارة الغير

المباشرة التي هي سياسة محايدة غير تأملية ولا معيارية، إنما سياسة تساعد على فهم المجتمعات البدائية فقط، لتستقر السياسة المطبقة سياسة لا تتناول مبدأ الإدارة المباشرة كما تعتقد لوسي ماير. لنخلص في الأخير إلى طرح مفاده وجود فرق بين الانثربولوجيا والإدارة الغير المباشرة نوعا من التناقض. كما يقودنا إلى خلاصة أن الغموض اللاحق بين الإدارة غير المباشرة كان واضحا بالنسبة لواضع هذه السياسة. فهذه الأخيرة يمكن أن تتخذ التقدمية والمحافظة في نفس الوقت.

لقد ظهر تيار جديد في بريطانيا يدعو للتمثل وتقارب الإيديولوجيات الاستعمارية بحيث اعتمد على طرح مبدأ التطور بدل أي سياسة الإدارة الغير المباشرة أو أطروحة المدنية التي صارت أطروحة قديمة. فكر هذا التيار في آليات جديدة لتدرآك كيفية تنظيم المجتمعات الإفريقية والتنبؤ بالمستقبليات. كما يسعى إلى فهم دراسة التغيرات الجارية في المجتمعات الإفريقية، وفهم الطبقات الجديدة ومشاكل السكان وتأثير العوامل على الحياة الطبيعية. بإضافة إلى دراسة التطورات السياسية والاجتماعية الجديدة في أفريقيا دراسة عميقة ومعمقة. ومنذ عام 1930م لم تعد الانثربولوجيا التطبيقية تكتفي بالاعتبارات العامة المتعلقة بالتغير، بل تخلت عنها دراسات تعتمد وتركز على الضرورات العلمية. ليصبح هذا التيار ممارسة وفي هذا الإطار ستظهر الانثربولوجيا السياسية والانثربولوجيا الاقتصادية. وفي هذه الفترة ظهرت معاهد وأبحاث جديدة ناتجة عن التقسيم الجغرافي التقليدي (إفريقيا الغربية،

إفريقيا الشرقية...) أو عن التقسيم الوظيفي. وتعد هذه الفترة بمثابة القفزة المعرفية

للانثربولوجيا، فعندما صرنا نتحدث عن التغير الثقافي أصبحنا الآن نتحدث عن التغير

الاجتماعي من جهة ولتسخير العلوم الإنسانية لأغراضهم الاستعمارية من جهة أخرى $^4$ . لقد تحول مفهوم الاحتكاك الثقافي إلى تغير اجتماعي وتحول الاستعمار إلى التمدن والتصنيع الذي أصبح الرهان الجديد والحقيقي للمجتمعات الإفريقية المستعمرة.

ليختم المؤلف القسم الثاني، إلى فكرتين أساسيتين أولى تتعلق بحدود الإدارة غير المباشرة والذي يتجلى أساسا في عدم انسجام سياسة الإدارة غير مباشرة مع متطلبات التغير والتطور. أما بالنسبة للفكرة الثانية فقد وجها فيها النقد إلى الإدارة غير المباشرة، حيث يقول "جرار" بأن سياسة الإدارة المتنورة الليبرالية العقلانية لم تعد لها مهمة خاصة في هذه المرحلة حيث اعتبرها الآن وسيلة محافظة تحدف إلى إبقاء السيطرة الاستعمارية. ومن هنا أصبح فكر مالنوفسكي يعرف تطورا بالتدرج. أما الفكرة الثانية فقد توصل فيها المؤلف إلى أن وصف الوظيفية بالسياسة الإدارة غير المباشرة، فهي بمثابة غموض ارتكب في حق المدرسة الوظيفية، معتبرا أن هذه المدرسة لم تعد تقدم أطروحات مناهضة للاستعمار، بل ثمة مدرسة جديدة قامة بذلك وهي المدرسة الأمريكية التي سميت بالانثربولوجيا الثقافية الأمريكية. وبحذه المدرسة قد نكون ختمنا القسم الثاني في كتاب الاستعمار والانثربولوجيا لجيرار لكلرك.

## 4. مسار الانتروبولوجيا في دول إفريقيا: من التنظير إلى إزالة الاستعمار

بعد القسم الأول والثاني الذي حاول من خلالهما الكاتب إبراز التطور الذي حصل للأنتربولوجيا والمعرفة الانتربولوجية الكلاسيكية في علاقتها بالحقيقة الاستعمارية التي لصقت بما من خلال مختلف الأطروحات المرتبطة بالإدارة الأوربية الاستعمارية المجسدة للتفوق والمدنية

<sup>4-</sup> محمد سعيدي، الانتربولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة الدكتوراه، جامعة أبوبكر بقايد تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2006-2007م، ص 5.

على حساب المجتمعات غير الغربية التي كرست التخلف والبدائية مع ما تعنيه البدائية من البربرية والتوحش والكسل في الاعتقاد والممارسة.

وبعد هذا الجرد حاول الباحث في القسم الثالث من خلال مختلف النظريات الأنتربولوجية المعاصرة والجديدة في الحقل الانتربولوجي وكذا من خلال الأنتربولوجيا والحراك الأفريقي التأكيد على أن المرحلة الجديدة للانتربولوجيا المعاصرة هي مرحلة إزالة الاستعمار ومناهضته في التنظير والممارسة من قبل ما سماه الباحث ب"حركة إزالة الاستعمار"، مع ما يكتنف ذلك من تعقيدات وصعوبات سواء على مستوى الأنثربولوجيا الغربية كإيديولوجية خدمت الاستعمار وتطورت من خلاله، أو على مستوى الإنصات للأنتربولوجيا الأفريقية كحركة منتقدة لها.

وسأحاول جاهدا تلخيص معظم الأفكار التي أتى بما المؤلف في هذا الجزء الأخير بعناوين مغايرة لما هو موجود في الكتاب لأن عناوينه لا تتلاءم دوما مع مضمونها ولأنها كثيرة ومتشابحة فلا يسع المقام لتسمية العناوين بمسمياتها، وعناويننا نحن تحاول اختصار العناوين والأفكار تحت عنوان كبير وخيط ناظم لها من جهة وموضح للفكرة الرئيسية من جهة أخرى ابتغاء لتبسيط الأفكار راجين في ذلك التوفيق وعدم التعسف على معطيات الكتاب وتسلسل المضامين.

إن القول بأن هذا العصر بحسب الباحث هو عصر "مناهضة الاستعمار" هو مفهوم غامض ناتج عن سلسلتين من العناصر عالمية وداخلية تتعلق بمجتمعات العالم الثالث. فهناك مناهضة للاستعمار من قبل اليمين ومن قبل اليسار أيضا في المجتمع الغربي وهناك أيضا من جهة أخرى إزالة الاستعمار فعلية في العالم الثالث، والغموض مرده في نظره هو ذاك النظر إلى مناهضة الاستعمار في أمم العالم الثالث الجديدة باعتبارها رفضا للسيطرة الغربية. تنظر مجتمعات العالم الثالث إلى بعض النظريات باعتبارها تحسيدا للنمط الجديد للاستعمار القادم من الغرب كما هو الحال مع الماركسية ذلك أنها عنصر من عناصر دفع العالم نحو الغرب، لهذا نجد الصين مثلا تتحدث عن الماركسية الصينية التي تعني إدخال المتغيرات الصينية الغرب، لهذا نجد الصين مثلا تتحدث عن الماركسية الصينية التي تعني إدخال المتغيرات الصينية

على الماركسية فحتى الماركسية تجلت فيها نزعة اعتبار أن أوربا هي المركز ومن ثم من الضروري حمل المدنية إلى البدائيين ومتابعة السيطرة عليهم ما داموا لم يظهروا الكفاءة والقدرة على تجاوز نمط الإنتاج الأسيوي...الخ.

إن الأطروحات الاشتراكية الديمقراطية الأوربية التي ظهرت خلال عام 1914م هي أطروحات استعمارية بامتياز. وأما الماركسية التي تتطور الآن باعترافها بتعدد الثقافات فهي ماركسية مناهضة للاستعمار. كما أن وجود ماركسية كوبية أو صينية أو أفريقية يظهر وجود نوع من الانفكاك والتفكك عن الاستعمار.

ولاشك أن القضاء على الحقيقة الإمبريالية بحسب الباحث "شيء لم ينجز بعد" ولكن من الواضح أن صورة الإمبريالية سائرة إلى الاندثار خصوصا مع مواقف الأنتربولوجيين المعاصرين المناهضين للاستعمار من داخل كل من المدرسة الوظيفية والمدرسة النسبية الثقافية الأمريكية:

- الوظيفية: أصبحت الدراسة الوظيفية بوصفها لا نمط الحياة. بل لنمط وجود فعلي تخطيا للمركزية الإثنية الفيكتورية التي لم ترى في المجتمعات الأخرى إلا أنواع حياة تخطاها التطور. تعتبر الوظيفية المجتمع ليس ركاما عضويا كما تصوره الفيكتوريون بل هو نظام وظيفي من مؤسسات تلي حاجيات إنسانية أساسية تحافظ على الاستقرار والديمومة.
- المدرسة الثقافية النسبية الأمريكية: مع الدراسات الشهيرة "لأنماط المجتمعات المتميزة بممارستها الاقتصادية والاجتماعية والدينية". وقد عرف "روث بناديكت" بمفهوم "نظرة القوس الثقافية" التي يعني بما "أن كل مجتمع أو كل ثقافة لا تستعمل إلا جزءا محددا من القوس الكبيرة الذي باستطاعة الإنسان استعمالها". هكذا حلت فكرة الاختبار الثقافي مكان مفهوم التوازي في مسيرة كل مجتمع حيث طرحت لا فكرة ذات الخط الواحد وحسب. بل فكرة التطور أيضا بمعناها التقليدي.

وثم هناك نموذج تحليلي أخر يستند إلى علم النفس والثقافة نجده عند"كاردينر" في مؤلفه "سيكولوجية حدود المجتمع". وهو "أنماط الثقافة" و"الشخصية الأساسية" فلكل ثقافة

بحسبه شخصية أساسية ليست بحاجة إلى قيم أو مفاهيم خارجية وذلك "لكون كل ثقافة ممتلك تركيبا نفسيا فريدا. ولا وجود لثقافتين متشابهتين "وكل ثقافة لها طريقتها في إدراك التغيير ومعايشته. فالتغير الذي أدخله الاستعمار والتثاقف الناتج عنه إما أن تقبله بصمت أو أنها ستحاول إعدامه كما قد يتحول إلى كبت على مستوى الأفراد أو إلى خلل نفسي وأمراض عقلية ونفسية. إن "كاردينر" بأطروحته هذه لا يوجه نقدا مباشرا إلى الاستعمار بل إنه نقد مبطن مستعملا في ذلك مفاهيم المدرسة الثقافية النسبية.

عموما إن المدرسة الثقافية النسبية قد ذهبت في أبعد تقدير مما ذهبت إليه الوظيفية. فهي لم تحاول طرح السؤال عما إذا كانت المجتمعات التي تتناولها بالدراسة وهي مجتمعات "بدائية". بل إنها رفضت حق الأنثربولوجيا في وصف هذه المجتمعات وإطلاق الأحكام التي ليست في النهاية إلا أحكاما قيمية". كما أن الفرق بين الوظيفية الإنجليزية والثقافية الأمريكية هو أن الأولى قد قبلت بسياسة الإدارة غير المباشرة لاعتبارها هذه السياسة وسيطة بين التقليد والتقدم في الإطار الإمبريالي. أما المدرسة الثقافية فقد أصرت على مظهر الإدارة غير المباشرة القابل للتحول إلى إدارة ذاتية تتجسد في استقلال سياسي وثقافي.

لقد ساهمت الأنثربولوجيا الثقافية برفضها تقسيم المجتمع الإنساني (كما فعل التطوريون مورغان وتايلور..). واعتباره (التطوريون) من كثرة العوالم الثقافية التي ساهمت في تحطيم رؤية الإمبريالية. إن الخلاف العميق بين الوظيفية والثقافية لا يتناول التاريخ المحدد الذي تنال فيه دول الاستقلال، بل نعني به مفهوم الاستقلال بالذات. فالاستقلال في مرحلة ما قبل الاستعمار كان مرتبطا بنمط وجود مختلف عن الغرب، أو عما أدخله الغرب إلى تلك المستعمرات لأن الاستقلال الفعلي ليس تحويل السيادة السياسية إلى جماعات تتعهد بمتابعة التغريب ومتابعة غرس تفوق القيم الغربية، إنه الإصرار على إرادة عيش حسب قيم خاصة "قيم لذاتما".

إن تشكيك الأنثربولوجيا الثقافية بشرعية الاستعمار من الناحية السياسية لا يمكن فصله عن الشك بإمكانية تثاقف شامل لمجتمعات العالم الثالث على أسس ثقافية محددة إنها

أسس الثقافة الغربية. لقد اعتقدت الإيديولوجية الثقافية بإمكانية تمثيلها للوظيفية التي آمنت بحا عصر الأنوار في نحاية القرن 18م وذلك من خلال إظهار الطابع النسبي للثقافة الغربية ومن خلال رؤيتها لها ضمن تعددية ثقافية. ولكن هل هناك أطروحات الأنتربولوجيين مناهضة للاستعمار حقا؟ نعم بكل بساطة ومن أبرز هؤلاء:

- ♦ "سابير" الذي أقام تمييزا بين "ثقافات أصيلة" و"ثقافات غير أصيلة". فالأولى ثقافات منسجمة متوازنة وتعيش بتطابق مع ذاتها". أما الأخرى فتحيل الفرد إلى حالة من الصدأ. كما تولد الكبت والاغتراب، ولم يشك إطلاقا بانتماء الثقافة الغربية إلى الصنف الثاني. فمهما كانت فعالية الصنف الثاني من الثقافات وقوتما التقنية بارزة فهي لا تستطيع إخفاء "إخفاقها الثقافي"، خصوصا مع سيطرة التقنية والاغتراب التقني. ولقد ساهمت الحروب خاصة الحرب العالمية الأولى والثانية في فتح الطريق أمام الموجة الثانية من الثقافة النسبية.
- ♦ هرسكوفيتز: يعود له الفضل في اختراع مصطلح "نسبية الثقافة" مستدلا على ذلك بكون كل تجربة هي نسبية لنسق المجتمع الثقافي ولذلك يقول بأنه من الوهم أن تسعى الثقافة الغربية لإطلاق أحكام معللة على ثقافات أخرى، وهي أحكام ستصبح فيما بعد قاعدة للممارسات الاستعمارية.

والنزعة الفردية في احتقار أو سوء تقدير الثقافات الأخرى هو ما سماه بالإثنية المركزية التي تعتقد أن نمط حياته أفضل من الأنماط الأخرى كلها. وأما الأطروحات الإمبريالية والتطورية فهي التعبير الصريح عن هذه النزعة الساذجة مهما بدت معقلنة. لقد قام هرسكوفيتز بنقد الأطروحات الإمبريالية ولكنه لم يتوقف عند مظهرها "الفيكتوري" بل فحسب هاجم أيضا سياسة الإدارة غير المباشرة الليبرالية والإمبريالية المتنورة التي دافعت عنها الوظيفية.

صحيح أن الوظيفية قد أبرزت وجود مؤسسات سياسية في المجتمعات كلها إلا أنها لم تستنتج من ذلك النتائج الممكنة كلها. إن المجتمعات الأفريقية قادرة على حكم ذاتما بذاتما طبقا لتقاليدها السياسية الخاصة مهما كانت هذه "التقاليد" والأنظمة السياسية بسيطة أو معقدة مرتبطة بمجتمعات صغيرة أو كبيرة فهي قادرة على ملء وظائف الدولة كما تفهمها.

♦ غريول: تعتبر مدرسة غريول تجربة جديدة بعد 1930م حيث حاولت التفكير بتعدد المجتمعات الإنسانية، ودافع غريول بشدة عن التعددية الاجتماعية الثقافية على كل الأصعدة. وقد دعا إلى ضرورة تمكين المجتمعات الأصيلة من الحفاظ على أصالتها وعلى شخصيتها الحية والتي يجب ألا تموت عكس ما أفترض الإمبرياليون "فغريول" ينتقد الاستعمار ككل باعتباره تثاقفا يقوم على السيطرة وعلى رفض الفوارق.

هذا هو الجانب النظري لنقد الاستعمار ومناهضته ولكن أين يتجلى الجانب العملي للأنتربولوجيا خصوصا الأمريكية؟ فأين يتجلى بضبط البعد العملي لأطروحات الأنثربولوجيين الأمريكيين حسب جيرار ليكلرك الأمريكان؟. يتجلى البعد العملي لأطروحات الأنثربولوجيين الأمريكيين حسب جيرار ليكلرك في إعلان الجمعية الأنتربولوجية الأمريكية عام 1947م مشروع إعلان للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تفيد فيه بضرورة تخطي الإطار الغربي لتنطبق هذه الحقوق في القرن وكم على المجتمعات كافة دون أن تكون هناك هيمنة للقيم الغربية. وأكدت على أن كل إعلان لحقوق الإنسان يجب أن يسعى أساسا لحل المشكلة التالية: "كيف يمكن تطبيق الإعلان المقترح على الكائنات البشرية كافة في ظل تعددية المجتمعات وطرق الحياة من غير أن يكون إعلانا للحقوق مصاغا بعبارات سيطرة القيم الغربية السائدة في أوروبا الغربية أو أمريكا؟".

على الرغم من أن بلدان العالم الثالث لم تحصل بتخلصها من الاستعمار على السيادة الخاصة الاقتصادية والسياسية ولكنها على الأقل استبدلت لغة الغرب النرجسية مع ذاته بلغة أخرى من نوع أخر هي لغة الخصوصية، وقد تناسلت رؤى الأفارقة ووجهات النظر. فمؤتمر باندونغ 1956م والمؤتمر الأول للمثقفين والكتاب السود عام 1955م فيها ارتفع صوت الأفارقة المثلين المعروفين لأول مرة بشكل عالمي للمطالبة بحق الأفارقة في تقريرهم

أمورهم بذاتهم بعدما دافع عن نفس الفكرة كل من "غريول"، "إيفانز بريتشارد" و"نادل". فكانت هذه المؤتمرات بمثابة الانقلاب السياسي للعالم على النرجسية الإمبريالية.

لا تعني إزالة الاستعمار بالنسبة لجاك بيرك تفتح الثقافة الغربية على أسس جديدة (أي نماية السيطرة السياسية المباشرة) بقدر ما تعني انبثاق أو إعادة انبثاق ثقافات مجتمعات حكم عليها أثناء الفترة الاستعمارية بالموت.

إن إعادة ظهور وانبثاق هذه التعددية وهذه الخصوصية التي طرحتها التطورية الضيقة الأفق والتي قضى الاستعمار على جوهرها هي التي تمثل جوهر التخلص من الاستعمار من خلال مطلب الأنثربولوجيا الأفريقية والنقد الأفريقي للأنتربولوجيا، ومطلب الأنتربولوجيا الأفريقية.

لقد طالب الأفارقة بأمرين رئيسين هما: إعلانهم انتهاء الأنثربولوجيا الغربية كشكل خطاب يحمل على الاغتراب أو كتعبير عن نمط علاقة غربي بعالم ثالث ينتمي إلى الماضي. ثم المطالبة بالسيادة الهوية الكاملة مقابل قيم الغرب وأهدافه. ولا تتجلى هذه المطالب إلا من خلال النقد والانتقادات التي وجهها الكتاب الأفارقة للأنتربولوجيا واللغة الأنتربولوجية والاستعمار بوجه عام، فأين يتجلى إذن هذا النقد الأفريقي للأنتربولوجيا؟.

يقول جيرار ليكلرك بدءا بأن النقد الموجه للأنتربولوجيا الغربية لم يوجه لهاجس أطروحاتما الأساسية بوجه عام بل بسبب التلوث الإثني الذي اتسمت به. لقد ساع المثقفون الأفارقة إلى الإصرار نحو اكتساب نظريات بنقد التحليلات السابقة المشوهة التي قدمها الأوروبي حول الثقافة والمجتمع العالم الثالث. ولعل أول دراسة أنثربولوجية بحسب الكاتب جيرار ليكلرك هي ل"كينياتا" عام 1937م -زعيم غينيا- أقامها على مجتمع "كيكويو" مناولا فيه النظام الاقتصادي والثقافي والسياسي. وكذلك دراسة ألبيني alpini في كتابه القضائية لشعب "الأغنى" في ساحل العاج عام 1960م.

ويعتبر مؤلف الشيخ "أنتاديوب" السينيغالي حسب الكاتب من أهم الآثار التي تناولت بالنقد الإيديولوجية الفيكتورية وبشكل خاص للتطورية ذات الخط الواحد، بحيث قلب مفاهيم الانتربولوجيا الكلاسيكية الأساسية رأسا على عقب مظهرا دلالاتها الإيديولوجية ومقدما الصورة الحقيقية للشعب الأفريقي بمعنى صورة أفريقيا باعتبارها سعيدة وقوية على عكس ما يقوله الغربيون من جهنميتها وضعفها ودونيتها...وقد كشفت المؤتمرات التي يقوم بحا الكتاب والفنانون السود عن الطابع الإيديولوجي للأنتربولوجيا الغربية الأوربية والأمريكية. فالقسم الكبير من كتابات الأنتربولوجيين كانت تبريرية ذاتية لا موضوعية قامت على أساس تبرير الاستعمار باعتباره واجبا حضاريا.

ولعلى أعنف نقد للاستعمار حسب الكاتب هو النقد الذي وجهه ايميه سيزار "aimi cesaire" في كتابه « discours sur le colonialisme » ، بالقول "إني أعتقد أنه لا يحق لأوربا المستعمرة أن تبرر لاحقا العمل الاستعماري بحجة تحقيق تقدم مادي واضح في بعض المجالات أثناء النظام الاستعماري...كما أعتقد أن أوربة الأقاليم غير الأوربية كان يمكن لها أن تتم بشكل مختلف عما تمت عليه تحت حزمات أوروبا وأن هذه الحركة كانت في طريقها وقد أبطأتها أو أخلت بها السيطرة الأوربية والدليل على ذلك نجده في ما نشهده حاليا من إلحاح الشعوب البدائية على فتح المدارس. وهذا ما ترفضه أوروبا حيث يطالب المواطن الأفريقي بالطرق والموانئ وأوربا المستعمرة تتردد. فالمستعمر هو الذي يريد السير إلى الأمام والمستعمر هو الذي يجر إلى الوراء...".

أما "فرانز فانون" أحد رجالات العالم الثالث هو و سيزار اللذان ينتميان إلى "جزر الانتيل"، فيرى أن إزالة الاستعمار لا تكمن في مجرد تحويل القيادة من البورجوازية الإمبريالية إلى بورجوازية وطنية، بل إنما تعني ببساطة إحلال نوعية من الناس مكان نوعية أخرى، والإزالة الحقيقة والفعلية عبارة عن مشروع كلي يستند إلى الحقيقة التاريخية المعاصرة ولا يمكن تحويلها إلى كل تمظهرها الخارجي والسطحي. إن فانون في كتابه "معذبو الأرض" باختصار

يقيم معارضة قوية لمسألة التثاقف وسياسة التماثل ولغة التمدن والتحضير فهو يقول أيضا بمثل ما قال به سيزار بانتهاء اللعبة الأوروبية.

ويقبل الأنتربولوجيين إلى حد ما الحكم القاسي الذي أطلقه العالم الثالث على علمهم أثناء الفترة الاستعمارية، وبعد التشكيك الذي أطلقه العالم الثالث بحق الانتربولوجيا الكلاسيكية بتنا نرى اليوم نقدا لهذه الانتربولوجيا حتى من أبنائها ومستخدميها. وهو نقد ليس فقط موجه للدور السلبي الذي ساهم فيه الاستعمار بتطوير الأنتربولوجيا بل وجه أيضا لدور الاستعمار أيضا في خلقه خطابا إن لم يكن علميا فهو مميز على الأقل".

ويؤكد الكاتب بأنه لا يمكن فصل إعادة تقويم الانتربولوجيا عن إعادة تقويم موقع الغرب في التاريخ وفي الكون. وهذا تقويم لا يتم ولن يتم إلا بإنهاء الاستعمار. ليثير الكاتب بعدا مهما سمي في الأدبيات الأنتربولوجية بإشكالية التثاقف الاستعماري والمزج الثقافي حيث اعتبر أنتربولوجيوا الثلاثينات القرن الماضي، أن الاستعمار يعد احتكاكا ثقافيا أو معايشة آلية لثقافتين. ثم اعتبروه تغيرا اجتماعيا أو صيرورة آلية من سيرورات التصنيع والتربية...فبعد الحرب العالمية الثانية وبعد ظهور حركات التحرر الوطنية في الشعوب المستعمرة اعتبرت الانتربولوجيا الدوافع الخلقية التي أعلنتها الفيكتورية قبلا دوافع أساسية (كالتعليم والتحضير ...) التي يلخصها المؤلف في كلمة واحدة وهي السيطرة.

إن مفهوم التثاقف هذا الذي تعلنه الأنتربولوجيا الاستعمارية لا يعني في نظر الكاتب إلا تمربا من الحقيقة فليس هناك أخد وعطاء في مسألة التثاقف، بل هناك اختيار في الصدقة التي "تنعم" بما أوروبا على المجتمع الإفريقي. إن العطاء يتم بشكل انتقائي وهناك أشياء لا يسمح فيها للمستعمر الأفريقي من تحصيلها كأدوات السلطة الطبيعية (السلاح، تقنية..) وأدوات السلطة السياسية واقتسام الثروات...وهو نفسه الاتجاه الذي يشير إليه هرسكوفيتز في أخر كتاباته بان التثاقف الاستعماري يخفي حقيقة لا يمكن تخطيها وهي الرغبة في السيطرة.

كما يؤكد على عدم إمكانية الحديث عن مزج أروبي –أفريقي بل دوما سيحضر الموقع المتعالي لممارسة السيطرة والخضوع. كما أن وصف الثقافة بطريقة من الطرق على أنحا جوهر يحتاج للتطوير شيء من تبرير الاستعمار. إن التغيير يجب أن يكون ثمرة السيادة وليس من الخارج وثمرة السيطرة.

ليؤكد بعد ذلك على أن أهمية "الأنتربولوجيا البنيوية" خصوصا مع "ليفي ستراوس" الذي استطاع من خلال مقاربته البنيوية الانفكاك عن المفاهيم الرئيسية للأنتربولوجيا الكلاسيكية كما هو الحال مع مفهوم البدائي. وهو ما جعل جيرار ليكلرك لا يدرج ستراوس ضمن ما سماهم بالأنتربولوجيين الكلاسيكيين كما ينوه بطرح جاك بيرك الذي يقول بأن إزالة الاستعمار السياسي مسألة وحدث أساسي.

مع التقدم الحاصل في العلوم الاجتماعية<sup>5</sup> والإنسانية لم تعد الإنسانية إنسانية مميزة بتبعيتها للزمان، بل بتنوعها المكاني على مر الوقت وبتعددية المدنيات التي لا يحق لواحدة منها أن تكون الوحيدة أو الفريدة وحتى الشعوب صاحبة العقلية البدائية أو ما قبل المنطقية صارت تفاجئ بغنى مؤسساتها. كما قضت العلوم الإنسانية على التمييز المسطح بين مجتمع عال وأخر أدنى وعلى تقسيم العالم إلى شعوب متحضرة وأخرى بحاجة للتحضير. ويطرح "دلافينات" إشكالا في كتابه "أفريقيا السوداء الفرنسية وقدرها" ويتعلق بكيف تقضي العلوم الإنسانية على الرؤية الاستعمارية بعد أن وضعت أسس الاستعمار أول الأمر؟.

وبعد انتهاء مرحلة مناهضة الاستعمار والانتصار الأمريكي والحرب الباردة والمسؤوليات الجديدة في العالم الثالث، بدأ مفهوم استراتيجي جديد يفرض ذاته على العالم، وهكذا تخلى عدد من الأنثربولوجيين عن النسبية وتحولوا إلى التطورية أو التطورية الجديدة التي تقيس تقدم المجتمعات بنسبة استهلاك الفرد من الوحدات الحرارية. ومهما تكن الضرورات

 $<sup>^{5}</sup>$  يحي بن الواليد، **الوعي المحلق: إدورد سعيد وحال العرب**، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع،  $^{2010}$  ص  $^{20}$  .

التي فرضت العودة إلى نظرية أساسها ضرورة النمو والتطور. فالظاهر هو أن النظرية والمدرسة الثقافية النسبية لم تكن صادرة عن نتائج العلوم الإنسانية كما أوضح هرسكوفيتش بل لم تكن أكثر من التعبير عن مرحلة تاريخية حاولت أن تقدم لها تفسيرا أمينا أو علميا.

إن حركة إزالة الاستعمار قد أوقعت الأنتربولوجيا في مأزق فقد انتهى غرضها وهدفها (الفروقات والتمايزات..) برفض الانتربولوجيا المعاصرة لها وبانتقاد العالم الثالث لتخريجاتما التفريقية المتغذية بالإثنية والمركزية والتفوق الغربيين. وينهي جيرار هذه الأزمة التي انفتحت فيها الأنتربولوجيا بمجموعة من الأسئلة في المعادلة التالية:

"إذا لم يعد للأنتربولوجيا موضوع خاص بما خصوصا بعد إزالة الاستعمار وفراقها مع مفاهيمها الكلاسيكية التي تعتبر استعمارية، ألا تصبح عندها مهددة بالانقراض أو بالذوبان كمادة تجريبية في علم اقتصادي أو في نظرية اجتماعية جديدة، كما هو الحال مع "التاريخ" الذي قال عنه "ايفانز بريتشارد" بأنه يقترب منها. ألا يمكن اعتبار الدراسات الأنتربولوجية دراسات مؤرخين أو اقتصاديين أو سياسيين؟ ألا يعتبر التاريخ حاليا أفضل مادة نفهم بما العالم الثالث؟ ما موقف الأنتربولوجيا حاليا من "التراث الأدبي الكبير والغامض" الذي نشده الآن في العالم الثالث؟"6.

على العموم، لقد استطاع الانتروبولوجين الاستعمارين أن يقدموا دراسات جيدة رغم أنها لم تكن علمية، لأنها كان الهدف منها هو تحقيق التوسع الاستعماري نحو أدغال إفريقيا، لكنها قدمت من المعلومات الدقيقة المفيدة والجيدة، فكانت خطوة فعالة في الدراسات الانتروبولوجية  $^{7}$ . وفي نفس الوقت، شكلت الدراسات الانتروبولوجية العسكرية  $^{8}$ 

 $<sup>^{-6}</sup>$  جيرار ليكرك، الانتربولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ص  $^{-6}$ 

 <sup>-</sup> حسن عبد الحميد احمد رشوان، الانتروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي
 الحديث، الإسكندرية، 2003، ص 43.

أحكاما قبلية وغير مؤسسة على أي مرجعية معرفية نظرا لعدم اختصاص هؤلاء العسكريين في مجال البحث الانتروبولوجي كما ساهم الضباط العسكريين في تأسيس للمعرفة الانتروبولوجية، فشكلت على المستوى الابستيمولوجي دعوة إلى المزج بين الايديولوجية والدغمائية، إنها دعوة لتصويب الحركة التاريخية ومحاولة لتجميع الإرث الاستعماري المختلف والمتنوع الإنتاج. بالرغم من سيادة الهوية الاستشراقية التي تبارك الاستعمار في المجتمعات الإفريقية 10.

#### خاتمة

وعلى سبيل الختم، لا يفوتنا في هذا المقال دون الاعتراف بالتوجه العام للأطروحة الجيرارية نسبة إلى جيرار ليكلرك التي تمشي مع التوجه الحديث للأنتربولوجيا المعاصرة التي تعيش بحسبه حالة الأزمة في المشروعية والشرعية الأنطولوجية في عالم تكشف فيه الشعوب التي اعتبرتها الانتربولوجيا لوقت قريب بالبدائية عن ظواهر الكائنية المتميزة كما هو الحال مع ظاهرة العدل الإنساني الخارقة للعادة في شعوب أهل السودان ومكانة المرأة المتميزة لدى شعوبها وشعوب المتاخمين لها من أهل الصحراء، إنها الظواهر التي لم تنال الاعتراف الأنتربولوجي في زمن الحماية الاستعمارية.

 $<sup>^{8}</sup>$  – محمد سعيدي، الانتروبولوجيا بين النظرية والتطبيق دراسة في مضاهر الثقافة الشعبية، مرجع سابق،  $^{5}$  –  $^{5}$ .

<sup>&</sup>lt;sup>9</sup> – El Baki Hermasi, **Etat et société au Maghreb**, Edition anthropoïde, Paris, 1975, p 70.

<sup>&</sup>lt;sup>10</sup> ادورد سعيد، **الإستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد غناني، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 31.

وجب الإشارة في ذات الوقت إبداء الاستغراب من تركيز جيرار ليكلرك على الأطروحات السينيغالية وجنوب إفريقيا التي عارضت الأطروحات الأنتربولوجية والاستعمار في الوقت الذي لم تحضا فيه كتابات الشماليين المغاربيين بأي صوت في هذه المعارضة خصوصا في الأطروحات الوطنية التي عرفت تناسلا قويا في هذه الشعوب لزمن ما بعد الاستعمار.

عموما، لقد انتقلت المستعمرات الإفريقية من مجالات استعمارية حكمت سيطرتها على الأهالي والسكان إلى مجتمعات تنادي بالتنمية 11 والتطور والتقدم والازدهار. فأي نموذج تاريخي وأنثروبولوجي للتنمية المستدامة برؤى محلية لهذه المجتمعات الإفريقية والمغاربية بشكل عام والعربية بشكل خاص في وقتنا الحاضر.

## قائمة المراجع:

- El Baki Hermasi, Etat et société au Maghreb, Edition anthropoïde, Paris, 1975
- ادورد سعيد، الإستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد غناني، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006م.
- بوحسون العربي، الانتروبولوجيا من علم الاستعمار إلى علم التنمية، مجلة الدراسات الثقافية
  واللغوية والفنية، العدد 10، نوفمبر 2019م، منشورات المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، برلين.
- جيرار ليكرك، الانتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات
  والنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الثانية، 1411هـ/1990م.

<sup>11-</sup> بوحسون العربي، الانتروبولوجيا من علم الاستعمار إلى علم التنمية، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية واللغوية والفنية، العدد 10، نوفمبر 2019، منشورات المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، برلين، ص67- 85.

- حسن عبد الحميد احمد رشوان، الانتروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003م.
- لنش رالف، الانتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية،
  بيروت لبنان، 1967م.
- محمد سعيدي، الانتروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة الدكتوراه، جامعة أبوبكر بقايد تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2006–2007م.
- محمد محسن دكروب، الانتروبولوجية: الذاكرة والهامش، دار الحقيقة، بيروت لبنان، الطبعة
  الثانية، 1991م.
- يحي بن الواليد، الوعي المحلق: إدورد سعيد وحال العرب، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع،
  2010م.